

زكي نجيب محمود

يومهم السابع

كانت حرب ٦٧ حرباً مدتها في حساب الإعداد ستة أيام ، ظنوا ان سيأتي لهم بعدها سبت الراحة ، لكن دقتهم في حساب أمـوال الناس قد أخطأهم في حساب الأيام والحوادث ، توقعوا بعد نهاية الأيام الستة يوماً سابعا يستريحون فيه الى الأبد ، واذا بالأيام السابع والثامن والتاسع وما تلاها ، واذا بالسنوات الأولى والثانية والثالثة والى ان استأنف القتال حدته هي كلها يوم سادس مكرر ، واذا بحرب الأيام الستة في حسابهم ، تصبح حرب الأعوام الستة في حساب الفلك ، وسوف يكون سابعا لا سبت الراحة لهم كما توقعوه ، بل سيكون عليهم يوم النار والعذاب ، جزاء ما غدروا وما استكبروا عن صلف مجنون ، فليلح السالك غضبة اذا ما عصفت الريح ، وللعبد والحق عند الله ميزان ، وانكم أنتم يا أبناءنا على أرض سيناء وفي سمانها وفوق بحرها ، لـمـوكلون بمشيئة الله ان تردوا لنا الأرض السليبية والكرامة المهذرة ، والنصر حليفكم بعون الله .

الاهرام

١١ تشرين الاول

هذه بعض سماتنا

عندما تزهـر الشجرة او تثمر ، فان لحظة ازهارها او انماها لا تكون كسائر اللحظات في حياتها ، لانها لحظة اكثر اصلا وهـمدا ، فشجرة القطن لا تصبح تعبيرا من سواها عن طبيعة تلك الشجرة شجرة قطن بكامل معناها الا عند تفتح الزهرة وظهور الثمرة آخر الامر ، واما قبل ذلك فهي في طريق الإعداد للهدف ، فاما حقيقته فحقت طبيعتها ووجودها ، واما أخفت فكانت الى حطب الحريق اقرب منها الى شجرة القطن : ولقد أتصور الشجرة ساعة ازهارها او انماها ، تستجمع كل كيانها في فعل واحد ، هو فعل الولادة للكائن الجديد ، وربما حدث لاجزائها نوع من التوتر ، لينفج لخروج الزهرة او الشجرة من عالم الخفاء الى عالم الشهادة .

وقد يكون هذا نفسه هو ما يحدث في حالة الإبداع الفني ، فهناك ارهاصات مهمة تسبق ذلك الإبداع ، وتشيع في كيان الفنان شيئا من القلق الفاض ، ثم ما هو الا أن تجيء اللمعة فيتحدد الهدف والطريق ، هكذا يكون الكائن الفرد في حياته ، وهكذا ايضا تكون الأمة ، فلكل أمة لحظاتها الفريدة التي تنبلور فيها أخص خصائصها لانها خصائص تظهر فجأة من عدم ، بل لانها كائنة هناك ، تنتظر اللحظة - لحظة الأزمات - فتتجمع بعد تشتت ، وتنبدي بعد غموض واختفاء ، وفي لحظة كهذه تتقاطع كل الخطوط لتلتقي في نقطة واحدة ، لو احسنا تحليلها ورؤيتها ، كشفت لنا عن غوامض النفس وخوافيها .

واعتقد ان الأمة العربية اليوم تعيش لحظة من هذه اللحظات الكاشفة ، فلکم سأل منا كاتب : من نحن ؟ ما حقيقتنا وأين نكون ؟ لكم قال فينا قائل : اننا في هذه المرحلة المرتجة من تاريخ العالم ، نريد البحث عن هويتنا حتى لانفوب ونمحي في هويات الآخرين ؟ وها هي لحظة مخبرية نجتازها ، قد تهدينا الى بعض الاجابات عن أسئلة الكاتيبين وأقوال القائلين ، فماذا نرى في لحظتنا الراهنة على سبيل الإجمال ، الى ان يتاح لنا سبيل البحث المفصل المستفيض ؟

نرى اول ما نرى أمة تتحقق وحدتها بفعل موحد مشترك ، فلقد قالها الامام ابن تيمية منذ زمن بعيد ، حين قال ان فكرة « الأمة » لا تتحقق لمجموعة من الناس الا اذا اشتروا في « فعل » واحد ، ان فكرة الأمة لا تتحقق - عند ابن تيمية - لمجرد ان يعيش افراد المجموعة على رفعة جغرافية واحدة ، ولا لانهم يشتركون في تاريخ واحد ، ولا لانهم يتكلمون لغة واحدة ، بل تتحقق فكرة « الأمة » في حالة واحدة وبشرط واحد ، هوان تلتقي فاعلياتهم في فعل موحد يستهدف هدفا واحدا ، وذلك لانه بالفعل المشترك يجاوز كل فرد حدود نفسه لينفتح على الآخرين الذين يشاركونه في اداء ذلك الفعل. ان التجاوز المكاني وحده لا يكفي في ايجاد الرابطة الحيوية العضوية التي تجعل من الأمة أمة واحدة ، فالمتفرجون في دار السينما يتراصون متجاورين على مقاعدهم ، بل وتتجه انظارهم الى شاشة واحدة ، ويتتبعون قصة واحدة ، ومع ذلك فلا شأن للواحد منهم بمن يجلس على يمينه او على يساره ، دع عنك من يجلسون وبينهم وبينه صفوف ، لكن ما هكذا الحال في فريق الكرة ، فها هنا يتفرق اللاعبون على أرض اللعب ، لكنهم يترايطون معا برباط الفاعلية الواحدة المشتركة المنبثقة من الداخل ، فالكسب لهم جميعا والخسارة

عليهم جميعا ، وضربات الكرة باقدام اللاميين ثاني متكاملة يماون بعضها بعضا على اصابة الهدف المشترك .

هناك مجموعات بشرية تجمع افراد المجموعة الواحدة منها « دولة » واحدة ، لكنك لا تشعر بين افرادها بمثل هذا الرباط العضوي الذي اشرفنا اليه ، فسكان الولايات المتحدة لم ينصهروا بعد في « امة » واحدة ، ولا يصعب على الزائر ان يرى بين الافراد مثل الرابطة التي يترابط بها الشركاء في عمل تجاري واحد او في ادارة مصنع واحد ، هي ما تزال رابطة المصلحة - والمصلحة المادية فوق كل شيء - ولا غرابة ان يكون أول ما تسمعه ممن تلاقىهم من افراد ، هو ان يذكر لك المتحدث اليك أصله الاوروبي او غير الاوروبي الذي ينتمي اليه اول الامر . فيقول لك : أنا الماني ، او انا ايطالي وهكذا ، ولقد لاحظت أثناء اقامتي هناك فترة ، بعض اليهود التي يبذلها كتابهم نحو « امركة » الاميركيين في « امة » ، وليس ذلك بغريب عنا نحن العرب ، وقد رأينا كيف ينتمي الاميركي اليهودي الى ما يتصل بيهوديته قبل ان ينتمي الى وطنه الاميركي .

اذن فمن أبرز سماتنا هذا الرباط الاسري الذي يجعل العلاقة بين افرادنا تتجاوز حدود المصلحة الى ما هو اهم من ذلك واعمق ، وهي علاقة قد تخفي عن الرائي في فترات الحياة العادية ، لكنها تشتد ظهورا في لحظات التنازم كالحلظة التي نعيشها اليوم ، ولا يجوز ان نخلط بين مثل هذه العلاقة « الاخوية » التي لا تكون الا بين ابناء الاسرة الواحدة ، وبين تلاحم الافراد الذين جمعتهم المصادفات ساعة الخطر ، كان تشرف سفينة على الفرق فتظهر بين ركابها روابط لم تكن قبل وقوع الخطر ولن تكون بعد زواله .

سمة أخرى تتميز بها اكثر مما تتميز بها امة اخرى فيما اعتقد ، وتلك هي الحاسة الرهفة التي تتميز بها بين ما يستحق الاهتمام الجاد وما لا يستحقه ، انا امة قطعت على طريق الزمن اكثر من ستة آلاف عام وحملت على كتفها أربع حضارات متعاقبة ، وهي الآن تدخل في الخامسة ، ومحال ان يكون وراءها هذا الرصيد الضخم من خبرات متراكمة دون ان يترك على وجهة نظرها انرا باقيا يشبه ما تتركه الاعوام في حياة الفرد الواحد . فعلى خلاف الحدث الفر ، ترى من أثقلته السنون بخبراتها بطيء الانفعال أمام الحوادث . فلا يستشير منها الا ما يمس صميم الحياة . لقد طبع ليوناردو دافنشي ابتسامة مكررة على شفطي مونا ليزا ، فلبث النقاد يعلقون ويشرحون لعلمهم يكشفون الغطاء عن سر تلك الابتسامة الفاضحة ، وفي عقيدتي ان مئات التماثيل التي نحتها الفنان المصري القديم ، بادنا من ابي الهول فصاعدا مع تاريخ الفن عند اجدادنا أسرة بعد أسرة ، تحمل ابتسامة أشد الغازا وأعمق غورا ، هي ابتسامة من خبر الحياة وسرها ، فأخذ يسخر سخريه ممتزجة بالاشفاق ممن تهزهم صفائرها وعواجر أحداثها . لكنه اذا جد من الامر ما يعلم انه جد ، نفرت همته وتشطت جوارحه الى ان تتحقق على يديه المعجزات ، وتلك هي صورة المصري الى يومنا هذا ، انني كثيرا ما أتلمس ملامح الفلاح المصري ، وهو ما يزال في بقاء الريف ، خصوصا من تقدمت به السن ، فأجد على وجهه وفي نظرات عينيه تلك الرصانة الرزينة ، والحكمة الهادئة ، مع صمت لا يلفو ولا يثرثر ، التي يراها الرائي في تماثيل الاقدمين ... انها فزارة ثقافية صقلت الطابع وحدت من نزوات الرعونة .. لقد قرأت عبارة تنسب لرجل من رجال الدين المسيحي في أوروبا ابان العصور الوسطى ، وقفت عندها لما فيها من فزارة المعنى ، وهي عبارة بيتهل بها قائلها الى ربه ما معناه : اللهم اعطني الصبر امام ما ليس في وسعي ان اغيره ، واعطني الشجاعة لاغير ما يمكن تغييره ، ثم اعطني اللهم حكمة اميز بها ما يمكن تغييره

من الامور وما ليس يمكن ... وتلك الصفات الثلاث التي بيتهل بها هذا الداعي ان يمدد الله بها ، هي من سمات المصري بحكم تاريخه وثقافته . فهو يصبر امام ما يتطلب الصبر ، وهو يهيم بالتغيير اذا دعت الدواعي ، ثم هو بحكمته يفرق بين ما يستحق ان يتغير وما لا يستحق .

والمصري ، بل العربي بصفة عامة ، متفائل بطبعه ، فهو مهما ضاقت عليه الدوائر ، آمن بكل كيانه ان بعد السر يسرا ، ولا يجيء تفاؤله هذا عن سطحية النظر كالتفاؤل الذي أجاد تصويره تشارلز ديكنز في شخصية مكوير ، بل هو تفاؤل صاحب النظرة العميقة التي تعلم ان في الكون تدبيرا يكفل ان يعتدل الميزان ، فلا يكون نقص هنا ولا اجحاف هناك الا ابتغاء تكامل أسمى ، لا يترك متقال ذرة من الخير او من الشر الا ان يعقب عليه بما يوازنه .

وانظر بعد هذا الى أي مواطن عربي عابر في الطريق ، كيف يقابل اللحظة التي نجتازها ، تجد خصائصه الكامنة في طبعه قد وضحت أمام الابصار : فهو لكل مواطن عربي آخر أخ تجمعهما أسرة واحدة ، وهو على وعي كامل بما تلقيه الظروف عليه من تبعات ، حتى ولو لم يكن ابان الحياة العادية ممن يطبقون تحمل التبعات . وهو هادئ ، متفائل ، يعلم في يقين ان الامور صائرة آخر الامر بارادة الله - متمثلة في ارادته - الى خير .

الاهرام

١٢ تشرين الاول

ليت عدونا يعرف

ليت عدونا يعلم ماذا يعني التراب المصري للمصري ، ليت يعلم ان المصري تملكه أرضه اكثر مما يملك هو تلك الأرض ! يسافر المصري الى غير بلاده او يهاجر ، لكنه أينما حل وحيثما ارتحل يشم عبير مصر . دع الدنيا بأسرها تقل عن سيناء أنها كئيبان من الرمل وراءها كئيبان ، فرمالها في عين المصري ليست كأي رمال ، لرمالها في بصره ألق وفي أنفه شذى ، قد يكون معنى سيناء عند العدو ان جوفها ممتلئ بالعدن ، او انها هامش لامن بلاده ، ولكنها عند المصري سيناء وكفى ، سواء أكان في جوفها معدن أم كان ذلك الجوف خاويا . هي ليست عند المصري هامشا للامان بل انه ليحميها بروحه كي تنعم هي بالامان . قد يتصور العدو ان تشطر سيناء شطرين : شطرا له وشطرا لنا ، على غرار ما تصور جده شابلوك ان يقطع له من جسم تاجر البندقية رطلا من اللحم وفاء لدينه ، لكن سيناء في قلب المصري كيان واحد حي يؤله ان تقتلع منه قلامة ظفر .

كنت في انكلترا أيام الحرب العالمية الثانية ، وقالت لي ربة البيت الذي جعلت منه مسكني : ان الموت يترى بنا جميعا لحظة لحظة ، فماذا توصي لانقل وصيتك اذا ما جاءتك اصابة الموت ؟ قلت لها : وصيتي الوحيدة هي ان يدفن جثمانني في أرض مصر .. سالتني متعجبة : ليست الأرض كلها سواء بالنسبة الى الموتى ؟ اجبتها : انك لا تدركين علاقة المصري بأرضه ، ولو قلت هذا لمصري لفهم مني ما أريد .

الجنسية عند عدونا كالرداء يلبسه او يخلعه على هواه ، فليس

يرى غرابة في أن يكون روسيا اليوم ، وأميركا غدا ، ثم إسرائيليا بعد ذلك ، كما هي الحال بالنسبة الى رئيسة وزرائه غولدا مائير ، فليته يعلم ان الشمس قد تغير من طبيعتها قبل ان يكون المصري شيئا غير مصري ، انه لا يتردد في جنسيته ولا يختار ، انه مصري منذ ستين قرنا من الزمان ، ذهبت منه اجيال وجاءت اجيال ، لكن اجياله كلها موصولة بحبل سري واحد يربطه بأمه مصر .

ليت عدونا يعلم كيف يرتبط المصري بأمه سيناء ... بل لعله يعلم ، ومن ثم كان كل هذا الحقد في قلبه والفيظ .

الاهرام

١٩ تشرين الاول

النفمة الهادئة

النفمة الهادئة هي نفمة المصري في حياته ، اذا ما اطلقت له تلك الحياة على سجيته ، لم تعترض سبيلها حوائل وموانع . المصري في حياته العملية مطرد منتظم مهذب ، ينساب انسياب النيل في مجراه ، لا يفاجئ ولا يباغت ، فنهز النيل حتى في فيضانه مقيد بموعده ، كانما هو ينذر بقدومه لكي لا يأخذ احدا على غرة وخديعة . المصري بانر للحضارات صانع للثقافات ، ولولا نفمة حياته المظنونة الهادئة ما صنع ولا بنى ، ولكنه اذا فاجأته فاجئة استدار لها وأزالها لكي يعود الى هدوئه فيبني ويصنع .

وللانسان في حياته العملية - كما للكاتب في كتابته وللمتحدث في حديثه - أسلوبه الخاص الذي يميزه من سواه ، وأسلوب الانسان في حياته العملية - كاسلوب الكاتب وأسلوب المتحدث - هو الجانب المنظور من حقيقته ، وهو مؤلف من مجموعة اختيارات وحذوف ، فهو يختار لنفسه في كل موقف - والواقف الحاسمة من حياته بصفة خاصة - هذا الفعل دون ذلك ، يختار في حديثه هذه اللفظة دون تلك ، فهو اذ يختار ويحذف ، يعكس نفسه امام الناس كما يريد ان تكون ، وحياة المصري كما يبدئها في الظروف المعتادة سلوكا وحديثا ، تتميز بهدوء الاعتدال .

انه اذا رضي انسان عن نفسه ، أباها في تعامله مع الناس ومع الاشياء كما هي على حقيقتها ، لا يدعو داع ان يسئل عليها أقنعة ليخفيها . ولقد عاش المصري في أزمة النكسة ست سنوات وأربعة أشهر ، خرج فيها نلى طبيعته ، فأخذه الضيق ، واستبد به القلق ، وتوترت أعصابه حتى لتستثيرها توافه الاسباب ، ثم ما هو بعد يوم واحد من النصر الا ان عادت له طبيعته ، وهانذا ألحظ في كل من أصادفهم حولي من الناس ، أينما توجهت ، وكأنه ما كانت الصلة بيني وبينهم ، هدوءا في النفمة : نفمة الحديث هادئة ، الحركة هادئة ، يزدهم الناس هنا وهناك ولكنه زحام يوشك ان يكون صامتا ، لم تعد وجوه الناس عابسة ، التعاطف والتراحم والتعاون أصبحت في لبح البصر هي قاعدة السلوك ، كشان المصري اذا تسرك لطبيعته .

كنت أتصفح كتابا يؤرخ لاعلام الرجال في الوطن العربي ايمان

القرن السادس عشر ، فكانت تلت نظري صور طريفة لرجال يمثلون المعايير المقبولة في حياتنا ، فهم في رأي ليسوا « اعلاما » بالمعنى الشائع لهذه الكلمة ، ولكنهم نماذج لتوسط الانسان المصري في حياته العملية ، حين تكون تلك الحياة موضع مدح وثناء من عامة الناس ، وهالك صورة من تلك الصور ، لترى فيها الاملاح الرئيسية التي أسلفت القول بأنها هي قسومات من الطابع المصري الاصيل : في هدوئه ، وعذوبته ، وتعاطفه وتراحمته وتعاونه ، وفي شعوره العام بان كل مصري - أو قل ان كل عربي - هو واحد من أفراد أسرته ، يعامله كما يعامل اخوته وابناء عمومته .

والصورة التي أقتبسها ، هي لرجل يدعى محمد بن النجار الدمياطي . كان خطيبا لمسجد في القاهرة ، جمع الله له بين العلم والعمل ، فهو في علوم الشرع امام ، وهو في التعبد قدوة ، وكان غاية في التواضع ، يخدم العميان والمساكين ليلا ونهارا ، ويقضي حوائج الفقراء والارامل ، يجمع لهم من اموال الزكاة ما استطاع ان يجمع ، وكان يلبس الثياب الزرق والجيب السود . ويتعمم بقماش من القطن . من عاداته كل يوم ان يتلو بعد صلاة الفجر نحو ربع القرآن سرا ، فاذا أذن الصبح قرأ جهرا قراءة تأخذ بمجامع القلوب ، وكان يخدم نفسه بنفسه ، يحمل الخبز على رأسه الى الفرن ، ويحمل حوائجه من السوق ، ومع ذلك فقد كان ذا هبة عظيمة ، ولقد حدث له أيام السلطان قانصوه الغوري ان استودعه تاجر مالا ليعطيه لولده بعد موته ، وجاء الولد وهو دون البلوغ ، فأبى ان يعطيه ماله الى ان يبلغ رشده ، فشكاه الغلام للسلطان ، وطلب منه السلطان مال الغلام ، فأقسم للسلطان ان ليس عنده شيء ، ولما بلغ الغلام رشده ، جاءه فأعطاه ماله ، فسأله السلطان في ذلك ، فقال ان فقهاء الشافعية أفتوا بان الظالم اذا طلب الودعة ممن أؤتمن عليها ، فلهذا المؤتمن ان ينكرها ويحلف على ذلك ، وأنت ظالم ...!

صورة - كما ترى - فيها سداجة قد لا تصلح نموذجا لعصرنا الراهن ، لكن فيها اركاننا أساسية هي التي يقام عليها الخلق المصري الاصيل اذا لم تمنع دون ظهوره موانع ، ففيها الهدوء الذي أشرت اليه ، والذي يضم في ثناياه النظرة الجادة العاملة العاطفة المتعاونة الائمة ، وهي صفات لا تتوافر الا اذا غزرت الثقافة وعمقت بعد ماض طويل عريق . فالنفمة الهادئة في الكلمة وفي الحركة ، هي نتيجة ضبط للجوارح والجم للسان ، فلا تسرع اذا أمكن التأني ، ولا صياح اذا أمكن الهمس ، ولا جزع اذا توافرت للقلب سكينه الايمان ، واذا شئت فانظر الى أسرة ريفية اجتمعت حول طعام العشاء : فلا تهتز الابدان بحركة تزيد على الحاجة ، ولا تنطق الالسنه بلفظة لا تقتضيها ضرورة السياق .

هذه النفمة الهادئة في الحديث ، وفي العمل ، وفي التعامل ، هي صورة حياتنا اذا لم يطرأ عليها طارئ دخيل . لقد قال سقراط ذات يوم لمن جلس بجانبه صامتا : يا هذا كلمني لكي أراك ! وعلى أساس هذا المبدأ السقراطي في ان النفس تكشف عن حقيقتها في نوع الحديث وطريقة السلوك ، نقول اننا - وقد أزعنا عن صدورنا كابوس النكسة - نعود اليوم الى حقيقة نفوسنا ، من هدوء ينطوي على تاريخ طويل كنا فيه صناع ثقافة وبناء حضارة بل حضارات تعاقبت واحدة بعد واحدة .

الاهرام

٢٦ تشرين الاول